حكمة دعسوقة

قال كليلة: والجمالُ: مبهمٌ نسبيٌّ، لا يحدُّه تعريف، ولا تقيِّدُه مخايل، تلتقطه العين، وتحوِّله صورةً، خلواً من روح، فيسبغ عليها الدماغ أحاييلَه، ويدليها للعين، فتنظرُ بعينِ الروح منها تارة، وبعين الطين تارةً أخرى..!

قال دمنة: ولكنّ من الجمال؛ الخاطف للأنفاس، الزاعق بأعلى ما فيه: ها أنا ذا..

لا تجدُ معه عينُ الروح إلا أن تقر وتخصع، معلومٌ بالضرورة، لا تنكره عينٌ وإن رمدت.

قال كليلة: هو ذاك يا دمنة، ومثلُ ذلك الجمال، يظلُّ وقفاً كقصرٍ فارهٍ، باذخٍ فرشه، ينتظر قاطنيه، يجوسون فيه؛ تأمُّلاً في زخارفه، يذرعونه روحةً وغدوة، ويتوسَّدون نمارقه متكئين، وما ذلك كله: إلا بحسن الرِّفد: الذي رسولُه الكَلِم، وفارسه الطباع، وصولجانه الخصال.

وما ذلك بجالٍ إلا كما كان من قصة: الدعسوقة والفراشة.

قال دمنة: وكيف ذلك يا كليلة؟

قال كليلة: يُحكى أنَّ فراشةً ربت يرقةً في بستانٍ ذاخر، يؤمُّ الجمالُ أركانَه، ويستوطن نواحيه.فما أن نفضت عنها سرابيلَ خِدْرها؛ حتى ازهوَّت فيها مُثُلاثُ الجمال: جناحان أبهجان أينعان أورفان، جمعتا من الألوان أنطقها، ومن الأشكال أذوقها، كأنّهما – الجناحان– مرابضُ فراشٍ تكاد من دبِّ روح الجمال فيها أن تطير، وتزقزق فيهما ألفُ ألفِ فراشة، كل واحدةٍ متهم أغرودةُ الفن، وميثاقُ الكمال.

قال دمنة: سبحان الله!، سبحان الله..!

قال كليلة: سبحانه سبحانه.

وكان يا دمنة، أن ما أشرقت شمس: إلا وعلى جناحي فراشتنا رست، وما أينع ربيعٌ إلا فيها ائتلق، رهيفةٌ أطرافها دقيقة، رشيقةٌ رقصاتها.

فهي المليكةُ ولا منازع، تطلُّ على بستانٍ فيه الجمال يترصَّد، فتلتوي لها أعناق الزهر تناجيها، وتنحني لرقِّها نسائم، فتحملها هوناً، كأنَّها تخاف عليها وقعَ النسيمِ إذ حمل.

وهي على حالتها تلك: من مخايلَ وأخيلة، ومن حولها عُمِّيَ عن جمالٍ إلا فيها، حتى نادتها فيها نزعةُ الأنا، واستلبتها منها، بجني غيرها عليها، إذ لاقى ضعفاً فيها: يرى كماله فيما أُكتسِب..!

أقول: وهي على ما رُكِّبَ فيها؛ حطَّت على زهرةٍ اختارتها، يجمعها معها بهاءُ الشكل واللون، تنكرُه فيها؛ باتخاذها عرشاً تستوي عليها: أُمثولةً متفرِّدة.

وما أن لامس دقيقُ القدم نسيجَ العرش، حتى لاحت منها التفاتةٌ ملكيَّة، لتتفاجأ بدعسوقةٍ صغيرة، بريئةِ المظهر بسيطتِه، هادئةً هانئة، اتخذت من ورقةٍ خضراءَ يانعة –لذات الزهرة– مهبطاً ومُستراحا.

فضجَّت منها عروق الفراشة، وانتفشت باسطةً جناحيها، ومرعدةً مُزبدةً خاطبت من عليائها الدعسوقة: – يا أنت، ألا تسمعين!! أُخاطبك أنت يا مُنقَّطة.

تخرج عن سكونها الدعسوقة، وتجيب: ألتمس عذرك سيدتي، قد كنت ساهمةً في ملكوت الخالق، أتأمل جليلَ صنعه، وعظيمَ قدرته في كلِّ ذرةٍ ممَّا خلق..!

تتعالى الفراشة: أنت يا صغيرة تتأملين!! ، بل وتسهمين وتسيحين!! ، فماذا تركتِ لمثلي أنا يا سوداءَ منقَّطة!!

تردف دعسوقتنا: أما نفخَ فيَّ ربي روحاً كما نفخها فيكِ!، وحباني عقلاً كما حباكِ!.

موجودةٌ مخلوقة، إبداعُ ربي في خلقي مشهود، لا ينكره إلا جاحد أثيم.

متبخترةً تتباهى الفراشة: وكيف لمثلك يا فيلسوفتنا السوداء، أن ترى جمال الخلق وجلاله من خلال عينٍ لا انعكاس للجمال فيها!!

كيف لفاقد الرَّوعات في ذاته، أن يراها في غيره، أو حوله!!

ما عهدتُ الناقصَ إلا ناقصاً في كلِّ شأنه، وفي أصل نفسه، وكذاك صفاته، فكيف لك يا منقَّطة أن تحوزي عين المُبصر المُتأمل، وعينك كليلة، وروحك بذي النقص عليلة!! كيف!!

تتسعُ حدقتا دعسوقتنا اندهاشاً؛ من منطقٍ أُلبس أرديةَ الحقِّ عنوةً، يداري سوأةَ عفنِ الباطل، وترد بيقين الواثق: والحقُّ تبارك وتعالى؛ لا يقيِّدُ جلالَ خلقِه، وسلطانه: شكلٌ ولونٌ يُخاطبُ الطين، بل يتعدَّى قشورَ الفهمِ السقيم؛ إلى رحاب العظمة وأرديتها السابلات، فيرى في كلِّ ما خلق؛ جمال.

أما رأيت الغرابَ الناعق: تنتكسُ لصوته الأرواح وتسقم؛ حباهُ ربي جناحين سوداوين، كما حُقَّ لجلال الأسود أن يكون!

يمخر عباب السماء بذا الجناح، كما سكينٌ تُمهرُ ناصعَ البياضَ مداداً .

بل، أما رأيتِ خنفساءَ الأرض، تلوذُ بطين، لا تكاد تراها العين، حتى تمتعض، وتوسعها طيناً يداريها بقدمِ الإزدراءِ والتَّسفيه، فإذا اختلفت العين الناظرة: بروحٍ مشبعةٍ بجمالٍ فيها ساكن، وَقَرَ واتكأَ في ذراتها؛ حتى رأت في القبيح المُستقذر، ما تلهجُ به أن: سبحان الخالق!

ساخرةً الفراشة: هاه.. ياللمنطق الأعوج!، يا للفكر الملتوي! الجميلُ يا صغيرة لا يحتاج محامياً ليصدح: ها أنا ذا.

لا تنكره عين، ولا تتجاهله ذبذبةُ روح، أبلجُ كرائعة نهار، لا تملكين أمامه إلا الخضوع، معترفةً بسلطانه، سائحةً في أرجائه – سرَّاً أو جهرا – تتذوَّقينه بعين الروح منك، أو عين الطين، الحاصل أنَّك–برغمك– تلحظينه، وتعرفين، وتعرِّفينه بصفته فتردفين: ياللجمال!

متمهلةً ترد صغيرتنا: ومن ينكر أي فراشة! ، والجمال صنع الخالق، وفيه تتجلَّى قدرته، فتُستلب العقول، وتخضع الأرواح، وتنقاد الجسوم؛ حقٌّ لا يجادلُ فيه إلا من أوتيَ الجدال في قلبه مرضاً، أو كلَّت منه العين لسقم الروح منه.

هازئةً مستعلية: هاه.. أرأيتِ يا مُتحاذقة!، وإني لا أراكِ تجادلين إلا لنقصٍ فيك، تبغين إثباته نقصاً في كمالي.

مطمئنةً دعسوقتنا تجيب: وربي خلق: جمالاً مبهراً كقرص الشمس، لا تفلح العين أمامه إبصاراً، فتخضع الروح، والعينُ منها بكماء، تتهجد في المحاريب، للصنعة، لا للصانع؛ فتنةً للمتعبِّد، والمُتعبَّد.

وجمالاً هادئاً رقراقاً كنبعٍ سلسبيل، تُنبتُ الحياة على جوانبه تفانينَها، وتزهر أكاليلها، تلحظه العين والروح في آن، تجد معه وفيه؛ السكينة والسلام.

وجمالاً؛ لا يلحظه إلا الواحد، بعينه وصفاته، فيعظم ويورف، حتى ليغدو كقرص الشمس إذ بزغ في روحِ واحده، ليغدو وطنه، وهو عند السواء: ممر قوافل!

العبرة، كلُّ العبرة، في عينِ الروح، تضفي على خاصتها: هالةَ الجمال، وتحرم الأغيار منها – بصدق تنسُّك –، أو تضعهم في مرتبةٍ دنيا.

فإن بزُّوها في عين الطين؛ بزَّتهم جميعا في عين الروح..!

متشكِّكةً: ولكنَّ الجمال خيرُ رسول، وترجمان الآي، ومباهج النفس والعين يا صغيرتي.

متبسمةً دعسوقتنا: أداةٌ هو، نسبيٌّ لا مُطلق يا عزيزتي، بل إنَّه – على نسبيَّته – لا يشترط معه تمام صفاء الحال، المؤدي للسعادة، مبتغى كلِّ أرضي؛ كسلاحِ جنديٍّ في معركة، تارةً ينوءُ بثقله وقد أُلقمَ مصارعاً، وتارةً يجد فيه الخلاص حياةً مع حياة.

ضمِّي جناحيك يا حبيبة، أرجعيهما إلى الوراء هكذا، نعم.. انظري في انعكاس عينيَّ الآن، ما ترين؟!

تقترب الفراشة من عيني الصغيرة، وتبحلق، فترتدُّ على عقبيها الدقيقين مجفلة: يا ربي، من هذه!!

تطمئنها الدعسوقة: لا تجزعي عزيزتي، فكما للجمال أوجه، فللقبح وجوه، يعكِّرُ صفوَ جمال الجسد الفاني في أحوال.

أما رأيت من حاز جمالَ الطين فيه كأكمل ما يكون: وقد تمعَّر وجهه حين الغضب، أو التصقت في خطوه، ولفتات عينه: مخايل الاستعلاء والكبر، أو من اختصر جمال الكون في أناه، وأنكره على الكلِّ – وإن قارب، وإن تساوى – حقداً من لدنه، أما رأيتهم جميعا – وهم على أحوالهم تلك – هل أبقى لهم الجمال من شيئٍ وقد أُلبسوا القبح صفاتٍ، فمازجت عكارته جلال الصنعة!

تومئُ الفراشة – ترقبُ قبحَ هيكلها إذ جُرِّدت من جناحين– : على أقبح ما يكون.

فتردف الدعسوقة: كذاك الروح الجليلة، إن وافق ترددها تردد موجات روح، فتضفي على العاديِّ سحرا، يُخفي المستقبح، بل.. والقبيح.

وكذاك الجميل– في مادة طينه – يلبس روحه القبح، أو يستوطن منحىً فيه، في حالٍ منه، فيحيله شيطاناً مريداً تتأبَّى مفاتنه العين!

مؤمنةً خافضةً جناحيها: القول ما قلت.. القول ما قلت.

كليلة: فما قولك يا دمنة..!!

دمنة: وياللعجب..!!